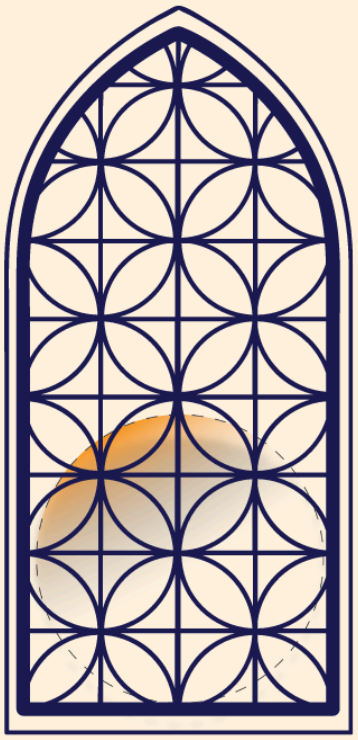

لقاءات التفسير الرمضانية

أ . أناهيد بنت عيد السميري

١٤٤٣ من الهجرة النبوية الشريفة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

/https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله --عزّ وجلّ--، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الثاني والعشرون

السبت 22 رمضان 1443

سورة سبأ الآيات (١ - ٦)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله وهو المستحق للحمد والثناء أن يعيننا على طاعته وحمده -سبحانه وتعالى-، وأن يعيننا على ذكره وشكره، وأن يعيننا على التفكر في آلائه ونعمائه حتى يعود الإنسان ويؤوب إلى ربه، اللهم ارزقنا صدقًا وإخلاصًا وانشراح صدر، وارزقنا علمًا يثبتنا عند الفتن...اللهم آمين.

نستفتح اليوم بإذن الله سورة استفتحت بالحمد، وهي من السور العظيمة التي حملت أدلة عظيمة على كمال الله، وعلى استحقاقه -عزّ وجلّ- للألوهية، فالسورة تتضمن من دلائل تفرده بالألوهية واتصافه بصفات العظمة والجلال، ما يوجب على الإنسان أن يكون حامدًا لله ويعرف أنه وحده -عزّ وجلّ- المختص بهذا الحمد.

وسورة سبأ وبعدها سورة فاطر، كلاهما بدأت بالحمد، وفيها من الأدلة ما يعيشه الإنسان في يومه وليلته، فيها من أدلة استحقاق الله للحمد ما يجده الإنسان حوله شائعًا واضحًا،

فتحتاج سورة سبأ وفاطر إلى التكرار والتفكير في تفاصيلها لتكون علامات للسير في الحياة، وليرى المؤمن كل شيء حوله من خلال آيات القرآن، من خلال وصف الرحمن لهذا الأمر، سواء نظرنا إلى الجبال أو البحار أو السحاب أو إلى الخلق...أيًّا كان، القرآن يعلمك كيف تنظر إليه، كل القرآن، وسبأ وفاطر فيهما مزيد بيان، اللهم علمنا وفقهنا واجعلنا من المؤمنين المتقين...اللهم آمين.

نستفتح قراءة الآيات من سورة سبأ وبعد ذلك نشير إلى ما يتيسر من معانيها:

بسم الله الرّحمن الرّحيم

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (1) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (2) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (3) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (5) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (6)).

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

هذه السورة التي ابتدأت بالحمد أشارت إلى معنى مهم في مسألة الحمد؛ لأن معنى (الحمد) على وجه الإجمال هو: الثناء على الله بما يعتقده الإنسان في كمال صفات الله؛ لذلك يتفاوت الناس بالحمد. كل المؤمنين يقولون: (الحمد لله) لكن تتفاوت حقيقة حمدهم على قدر معرفتهم بربهم؛ لأن الحمد في أصله هو:

الثناء على المحمود بما له من كمال صفات

فكلّما زاد الإنسان معرفة بكمال صفات الله، واستحضارًا لها، كلّما كان حمده أصدق، وثناؤه على الله أوقع في الأجر له؛ ولذلك يتفاوت الناس في أجورهم -وهنا نتكلم عن أهل الصلاح وأهل الإيمان- رغم أنهم يفعلون نفس الأفعال من صلوات ومن صيام ومن قيام، لكن الفوارق تكون شاسعة بينهم في الأجور، والسبب:

صدق ما يحملون من معرفة رب العالمين، وبقاء هذا المعنى دائمًا في أذهانهم

يعالجون به خطرات قلوبهم ووساوس الشياطين؛ شياطين الإنس والجن عندما تتسلط عليهم، يعالجونها بمعرفة ربهم

فيجدوا في نفسهم أن الحمد له وقْعُه، فهم يعتقدون أن الله كامل الصفات ولا يصدر عن كامل الصفات إلا كامل الفعال، فيعالج الإنسان نفسه بهذا المعنى حتى يصبح من محسني الظن بالله الراضين عمّا أعطاهم الله.

فهو -سبحانه وتعالى- الحمد كله له لأنه وحده كامل الصفات، فلا أحد يشاركه في إطلاق الحمد، الثناء كله لله وهذا هو الحق؛ لذلك ربنا يحب منّا أن نحمده؛ لأننا عندما نحمده نضع الأمور في مواضعها، فنثني عليه وهو المستحق للثناء، ولا نثني على غيره ثناء مطلقًا لأن لا أحد غير الله يستحق هذا الثناء، وهذا هو الحق الذي يرضاه الله ولا يرضى عن غيره، وهذا هو الحق الذي تحبه النفوس السليمة.

ولنضرب مثالًا بواقع الخلق لنتصور هذا الأمر: إذا كنت اطلعت على حال أحد من الخلق لسبب من الأسباب وعرفت سوء خلقه في بيته، وعرفت سوء تعامله مع الضعفاء، وعرفت شيء من اختلاسه للأموال وخيانته، ثم في مجلس وجدت الناس يثنون عليه ويمدحونه لما يظهر لهم من حسن أخلاق! هذا المدح له لا بد أن يغيظ قلبك، وتشعر بالقهر أنه يمدح وهو في حقيقته بهذا الحال، وإن كان الموقف يحتمل لو كان عندك جرأة يمكن أن تقول: (ليس الأمر كما تعتقدون!) وخصوصًا لو كانوا سيرشحونه لمنصب أو يحمّلونه أمانات، تشعر أن هذا الثناء ليس في مكانه، هذا الثناء باطل ويكون وراؤه ما يكون من الباطل الذي يجر باطل آخر!

هكذا خلقنا رب العالمين؛ نعرف الحق من الباطل ونكره الباطل، كما تبين لنا في لقمان.

فلما نفهم هذا المثل المضروب نفهم كيف خلقت نفوسنا، وكيف يعلمنا رب العالمين ماذا يجب علينا أن نفهم وماذا يجب علينا أن نعتقد وماذا علينا أن نقول، فيستحي الإنسان أن يثني على أحد ثناء مطلقًا غير الله؛ لأن كل أحد غير الله ليس كامل الصفات، ومن ثم إعطاؤه الثناء المطلق باطل، بل إن الثناء المطلق الدال على أن المثنى عليه له صفات الكمال هو لله وحده، فالحمد لله.

الحمد: الذي هو الثناء على كمال الصفات وجميل الإنعام إنما هو مختص بالله، (اللام) في الحمد لله تدل على الاختصاص أي: هو وحده الذي يثنى عليه.

ومما يثنى عليه خاصة: الإنشاء والإيجاد (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) فهذا مما يدلنا على كماله؛ لأن ملكه لما في السماوات والأرض ملك حقيقي، فهو الذي أوجد هذه الأشياء وهو مالكها.

وعندما تنظر إلى ما في السماوات وما في الأرض تجد فيهم من المصالح، وتجد فيه من دلائل العظمة والجلال والسعة أمرًا مهولًا.

انظر إلى السماء في الليل كيف تكون كالثوب الموشّى مما فيها من أفلاك -سبحان الله- هذه حقيقة!

فإيجاده -سبحانه وتعالى- هذه الأشياء بهذه الصفات التي لا يمكن للإنسان إدراك حتى جميع صفات المخلوقات، لكن كلها بالإجمال تدل على عظمة وجلال وكمال وحكمة وسعة علم الله، تفاصيل كثيرة تدل على عظمة خالقها.

فهذه السماوات والأرض فيها نعم جمّة، هذه السماوات والأرض فيها آيات عظام، هذه السماوات والأرض تدل على الله؛ فلذلك يحمد -عزّ وجلّ- لما نجده في السماوات والأرض، الموجود في السماوات والأرض يدلنا على الله (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) الملك الحقيقي لكل شيء لله، فلا يغر الإنسان أبدًا أن الله ملّكه شيئًا، إنما الملك الحقيقي لله، فهو -سبحانه وتعالى- الذي أوجد وأعدّ وأمدّ.

ولننظر إلى كل الخيرات التي حولنا نجد ما يدلنا دلالة واضحة على ملكه للأمور وتصريفه لها، (وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ) -سبحانه وتعالى-، في الآخرة يظهر من حمده والثناء عليه ما لا يكون في الدنيا، في ذاك الموقف العظيم يرى الإنسان عندما تبدل قدراته يرى من عظمة الله شيئًا ما وجده في الدنيا، ويجد الخلق في وقت القضاء من عدل الله وقسطه ما يزيدهم حمدًا له، فكما أن له الحمد في الدنيا فله الحمد في الآخرة، وهذا الحمد يكون مشتركًا.

- في الدنيا أهل الإيمان هم الذين يحمدون وينفعهم حمدهم، ويزيدون معرفة بربهم فيزيدوا حمدًا وصدقًا في حمدهم.
- وأهل الكفران بعيدون عن هذا الباب، لا يحمدون ولا يثنون على الله ولا يشكرون، بل يظنون أنهم يملكون ويكفرون بمن ملكهم، ويشكون ويلحدون -نعوذ بالله من الخذلان- هذا حالهم مع الحمد في الدنيا، في الآخرة عندما تنكشف الحقائق ويصبح بصر الإنسان حديد، يرون ما يلزمهم الحمد، فيكونوا لله حامدين، يحمدون الله.

كيف يحمدون وهم سيكونون من أهل العقاب؟!

أهل العلم بينوا هنا أن (وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ) سيكون هذا عام، حتى أهل العقاب سيدخلون النار وقلوبهم ممتلئة من حمده، وأن هذا من جراء أعمالهم، وأنه لم يظلمهم شيئًا، وهؤلاء كان مطلوب منهم هذا الحمد في الدنيا لكن ما أتوا به وأتوا به في وقت لا يفيد فيه هذا الحمد لكن سيكون هذا الحمد موجود، فالله له الحمد في الدنيا (وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ).

وحين نفكر أن له الحمد في الآخرة نعرف أن أهل الإيمان أيضًا يحمدون الله، فلا تسل عن حمدهم في دار النعيم والثواب، وأول الحمد من أهل الإيمان أن المؤمن عندما تقوم

القيامة ويصل للآخرة، يجد في نفسه حمدًا لله لأنه تحقق له هذا الحق الذي كان يوقن به في الدنيا.

في الدنيا المؤمن يعرف أنه لا بد أن يكون هناك يوم قيامة؛ لأن الذين كفروا في الآية الثالثة ينكرون أن تأتي الساعة، فالمؤمن يتبع النبي -صلّى الله عليه وسلّم- في هذا الأمر، ربنا يقول للنبي -صلّى الله عليه وسلّم-: (قُلْ بَلَى وَرَبِّي) يحلف على أن الساعة ستأتي من المؤكد، وفي الآية الرابعة بيّن لماذا من المؤكد أن تأتي الساعة (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا) فهكذا المؤمن في الدنيا، يعتقد هذا الاعتقاد؛ أنه لا يمكن أن تترك الدنيا ونحن نرى أكثر الظلمة والمنافقين يموتون من غير عذاب، وأكثر المؤمنين يموتون لم يوفوا ما وعدوه من الثواب، ونحن نعلم أن ربنا حكيم خبير، كما في الآية الأولى، فالحكيم لا يترك عبيده سدى، يبغي بعضهم على بعض ولا يأخذ حق المظلوم من الظالم، فربنا حق وأفعاله حق، فأكيد أن هذا الأمر يدل على أن هناك درًا أخرى يظهر فيها العدل، بل ويظهر فيها الفضل من رب العالمين.

فهذا يجعلنا نفهم معنى(وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ).

فأهل الإيمان يحمدون الله في الأولى ويحمدون الله في الآخرة، وأهل الإيمان يحمدون الله على أن هناك آخرة أصلًا؛ لأنه لو لم تكن هناك آخرة أين سيجازى المحسن؟ وأين

سيعاقب المسيء؟ وأين سيؤخذ حق الضعفاء، فالله له الحمد في الآخرة.

وفي الآخرة يتبيّن من كمال الله -عزّ وجلّ- الأمر العظيم لأهل الإيمان، فتكون الآخرة بالنسبة لهم نفسها تستحق الحمد، وما يجدون من ثواب ونعيم أمرًا عظيمًا، ما يرون من توالي نعم الله وإدرار خيره وكثرة بركته وسعة عطاياه أمرًا عظيمًا سيجدونه في الجنة -نسأل الله من فضله- فلا تبقى في قلوب أهل الجنة أمنية ولا إرادة إلا ويعطون فوق ما يتمنون، بل يعطون من الخير ما لم تتعلق به أمانيهم ولم يخطر بقلوبهم، ما يجدونه من معرفة الله في الجنة سيكون سببًا لامتلاء قلوبهم بحمده، ويكون معرفة الله والثناء عليه في الجنة أحب إلى أهلها من كل نعيم، وألذ عليهم من كل لذة.

لهذا عندما يأتي الموقف العظيم في الجنة وتحصل الرؤية لرب العالمين ويسمعون خطاب رب العالمين، سيذهلهم هذا عن كل نعيم، ويكون الذكر والثناء على الله كالنَفَس في جميع الأوقات، فالجنة دار النعيم، تتنعم فيها الروح بمعرفة الله وبعظمته، تتنعم فيها الروح بما لله من جلال وجمال وسعة كمال، فتجد الثناء على الله بالحمد في الآخرة من أهل الجنة فوق ما يصف الواصفون، ويكون هذا من النعيم العظيم الذي يتنعمون به، فيا لحكمة الله! الله هو الحكيم الخبير الذي ظهرت آثار حكمته وخبرته في كل خلقه، وفي كل تدبيره وفي كل شرعه، حكمته وخبرته ظهرت في هذا الكون بكل سننه، وفي

هذه الخلائق بكل ما كان في الاختبار. تظهر حكمة الله وخبرته بهذا الاختبار الذي جعله الله في الدنيا على الخلق، وبهذه السنن الكونية التي تراها حولك.

الفائز هو الذي حمد الله في الدنيا وعلم عن كمال الله، وهذا الفائز هو الذي سيكون يوم القيامة حمده زيادة في نعيمه.

أما أهل الكفر فإن حمدهم لا ينفعهم بشيء لكنه سيكون موجودًا، سيحمدونه وسيجدون في أنفسهم لزوم الثناء على الله لظهور كماله، فسيتذكرون أن الله أسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة في الدنيا، وأن الله أرسل الرسل وأنزل الكتب، وأنه -سبحانه وتعالى- تلطف بهم وتودد إليهم بنعمه، لكنهم ما استجابوا فعلموا أنهم هم المفرطون لما أبوا في الأولى أن ينتفعوا بالإيمان، لكن فاتهم هذا الأمر.

لذلك من العجائب أن هذه السورة تنتهي بهذا الخبر في آخر السورة في الآية: (51)، يخبرنا الله -عزّ وجلّ- عن هذا: (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ).

ثم هنا يقولون آمنّا: (وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) من أين سيتناولون الإيمان؟ قالوا: (آمنّا) والآن لا ينفع! فهم يحمدونه لكن الحمد الآن لا ينفعهم، يحمدونه في الآخرة لأنهم يعلمون أنه لا يعذب أحدًا منهم فوق ما يستحق، وهو قادر على ذلك؛ لذلك كما أن الجنة درجات، النار دركات وطبقات.

فلما في الدنيا حمدوا غير الله لم ينفعهم حمدهم في الآخرة لأنه لا أساس له من الإيمان، لا يغنيهم هذا الحمد لأن الآخرة ليست درا العمل فالشرط فات وهو: الإيمان بالغيب.

يطول المقام في الكلام عن حمد الله -عزّ وجلّ- في الآخرة وكيف أنه ظاهر حكمته وخبرته -سبحانه وتعالى- في كل شأن.

يبقى في نفوس أهل الإيمان «لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[1] يبقى في نفوس أهل الإيمان أن الله هو المستحق للثناء أبدًا أبدًا.

فلما عرفنا أن ثناءه ظاهر وهو الحكيم في ملكه وتدبيره وفي أمره ونهيه، وهو الخبير المطلع على سرائر الأمور وخفاياها، أتت الآية الثانية تدل على صفة هي من أعظم صفات الكمال لله وهي: صفة العلم.

وهذه الصفة المتأمل فيها يجد أن كل شيء يدل عليها، فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وتدبيره بعلم وعطاؤه بعلم ومنعه بعلم، فهو الحكيم الخبير.

(يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ)

---

[1]() أخرجه مسلم (486).

كأن الآية الثانية زيادة بيان لمعنى أنه الحكيم الخبير. وذكر شيء من علمه -سبحانه وتعالى- يدل على كمال علمه، فإذا كان يعلم ما يلج في الأرض، وما يخرج من الأرض، ويعلم ما ينزل من السماء، وما يعرج في السماء، فبغيره -سبحانه وتعالى- هو أعلم؛ لأن الولوج هو الدخول، يعلم الله -عزّ وجلّ- قطرة المطر عندما تلج إلى الأرض وتدخل إلى أعماقها، يعلم أين نزلت هذه القطرة من المطر التي تدخل إلى الأرض، والدابة التي تزحف فتخرج من الأرض، والنبات والمعادن.

الناس عندما يبحثون عن معدن أو ذهب ويعرفون أين مكانه يشعرون بفرح عظيم والله يعلم كل كنوز الأرض أين أماكنها، ويعلم -سبحانه وتعالى- الدواب المستكنة في بيوتها ومغاراتها، والدود الصغير الذي يخرج من الأرض يعلم الله -عزّ وجلّ- ولوجه وخروجه.

وعندما يقبر الإنسان في الأرض ويصبح رميمًا، ما يبقى منه شيء، يعلم الله -عزّ وجلّ- أحوال هذا البدن، وينشئه مرة أخرى يوم القيامة، ويعلم -عزّ وجلّ- ما ينزل من السماء من المطر والثلج والرياح، وكل شيء يصعد إلى السماء سواء كان من ملائكة أو من ريح أو من أتربة أو من طير أو من أرواح تعرج عند مفارقة الأجساد، فسبحان ربنا العظيم ما أعظمه وأعظم علمه، فلا يبتئس الإنسان أبدًا، ولا يدخل إلى قلبه اليأس، فإن الله مطلع على أحوالنا، محيط بنا علمًا، وهو

الذي يعلم -عزّ وجلّ- عن أرزاقنا التي تساق إلينا، وهو الذي يوصلها إلينا -سبحانه- فلا مانع يستطيع منع ذلك (وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ) -سبحانه وتعالى-.

فلا بد أن نشعر أن علمه -سبحانه وتعالى- بكل شيء جملة وتفصيلًا، وعلمه خاصة بأحوال العباد يظهر منه آثار رحمته وغفرانه؛ لأن أعمال الإنسان وأحواله في العقائد وسيره في حياته واستقامته في نفسه هذا كله مما يعرج في السماء؛ العمل الصالح والكلم الطيب، فهو الرحيم الغفور، فاطلبوا أسباب رحمته ومغفرته، واعلموا أنه لولا أنه رحيم غفور لهلك الخلق، فهو يطلع على أحوالهم، وعلى سوء أفعالهم، وعلى كفرانهم لنعمته، مع ذلك يعطيهم ويغذيهم، فاللهم اغفر لنا وارحمنا وادفع عنا وساوس الشيطان، واجعلنا بك مؤمنين، محسنين الظن يا رحمن.

(وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ) مطلع على أحوال العباد وعلى تقصيرهم، بل على إساءتهم ومع ذلك يطعمهم ويسقيهم، وهذا كله من آثار رحمته.

ولننظر أعظم قولًا يدل على أن الإنسان ما عرف الله الرحمن هو: إنكار وجود يوم القيامة.

فالذي ينكر وجود يوم القيامة يتهم الله بالظلم ويزيل عنه وصف الحمد، فنعوذ بالله من هذه الحال ومن هذه العقيدة، لا بد أن يكون هناك يوم قيامة، ولا بد أن يحاسب الله الخلق

ويعاملهم بين معاملة العدل ومعاملة الفضل، ومن اعتقد خلاف ذلك أزال معنى الحمد والثناء على الله، وقال إن الدنيا سدى، ولعب، وأنه لا قيمة لأعمال الصاحين ولا لجهادهم ولا لصبرهم، وأنه لا بأس أن يكون الإنسان مستهترًا في الحياة عاملًا فيها بهواه! وهذه مسبة عظيمة لرب العالمين.

فنحن نؤمن بيوم القيامة ونعلم أن هذا يدل على كمال الله، وأنه لولا يوم القيامة لانفرط عقد الخلق وضاعت كرامتهم، فالحمد لله الذي جعل يومًا فيه نلقاه، نسأل الله -عزّ وجلّ- أن يجعل خير أيامنا يوم أن نلقاه. فإيمان أهل الإيمان بالدار الآخرة إنما هو تعبير عن حمدهم لله، وثنائهم عليه، إيمانهم بالدار الآخرة تعبير صادق عن إيمانهم بأن الله كامل الصفات، وهو في الحقيقة سلوى لأهل الإيمان؛ لأن كل نقص هنا وكل آلام يحتاج الإنسان أن يعرف أنها ستزول وتبدل بالأجور ويطمع الإنسان من ورائها أن يكون من أهل الحبور، فما أعظم هذه العقيدة!

وانظر لتفاصيل هذه العقيدة:

- عرفنا أن الله هو الحكيم، ثبتت عندنا حكمته بما نشاهد من محكم أفعاله، وبما نرى من عظيم تدبيره.
- وعلمنا أنه العليم الخبير لأن الحكمة لا تكون إلا بعلم.

- وأيضًا عرفنا عن الله أنه رحيم غفور، فهو يعامل الخلق برحمته ومغفرته رغم ظهور الآيات الدالة على كماله.

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

تأتي الآخرة التي تظهر فيها الحكمة والعدل والفضل، فالله لا بد أن يأتي بالساعة؛ لذلك قال: (قُلْ بَلَى وَرَبِّي) رب العالمين أمر الرسول الكريم أن يرد على هؤلاء الكافرين الذين أنكروا أن الساعة تأتي، لكن نلاحظ أن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- قال: (بَلَى وَرَبِّي) لماذا اسم الرب؟ كأنه يقول: ربي المحسن إليّ بهذه النعم، ربي الذي أظهر آثار تربيته للخلق، من آثار ربوبيته أنه لا بد أن يكون هناك لقاء به، فالساعة تأتي، تأتي ليظهر فيها ظهورًا تامًا الحكمة بالعدل والفضل، وغير ذلك من عجائب الحكم.

ثم لماذا لا يحكم بينهم؟ أليس الله مطلع على تفاصيل أحوالهم؟ في الدنيا صاحب السلطة قد تضعف سلطته لأن رعيته غائبون عن علمه، فيحصل الإهمال بسبب ضعف العلم، ويترك بعض الناس من مصالحهم، أو يترك بعض الناس فيثورون عليه، أو يحصل ضعف في مملكته، كل هذا بسبب ضعف العلم! لكن رب العالمين سيحاسب الناس وسيعاملهم

بفضله وعدله لأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة، لا يغيب أبدًا عن الله -عزّ وجلّ- مثقال الذرة. أقل شيء أنت تقدره لا يغيب عن الله -عزّ وجلّ-.

فإذا كان هذا هو حال علم الله فلتعلم أن هذه الحال لا بد أن يكون وراؤها حساب، ويكون وراؤها عطاء لمن يستحق العطاء؛ وهذا من فضله -عزّ وجلّ-، وحرمان وعقاب لمن يستحق العقاب؛ وهذا من عدله -عزّ وجلّ-.

ونلاحظ تكرار الأخبار عن العلم، وكل هذا لأجل أن نتصور أن الله قد أحاط علمه بكل شيء؛ بذوات الأشياء، بأجزاء الأشياء الصغيرة كانت أو الكبيرة، كل هذه يعلمها الله. فالذي لا يخفى عن علمه مثقال الذرة فما دونها في جميع الأوقات، ويعلم ما تنقص الأرض من الأموات وما يبقى من أجسادهم، قادر على بعثهم -سبحانه وتعالى- من باب أولى، وليس بعثهم وإعادة حياتهم بالأمر العجيب المستبعد، بل تعجب من إحاطته بكل شيء، ما يغيب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين.

هذا كله يدل أهل الإيمان على أن رب العالمين مستحق للحمد والثناء لما له من كمال صفات، فالذي يظن أن هذا الجسد -مثلًا- إذا تفرق في الأرض ومزق كل ممزق أن الله ليس قادر على إعادته؟ هذا هو الذي يعجب منه، الله عالم بكل

جزء، فهذا الجسم الذي اضمحل وذهب وتمزق كل ممزق الله يقول له: (كن) فيكون، ويجمع هذه الأجزاء، فهو عالم بها، فالله عالم أين تكون أجزاء هذا البدن وقادر على جمعه -سبحانه وتعالى- فما هو العجيب في إعادة الله -عزّ وجلّ- للخلق؟ والحكمة واضحة في ذلك.

لماذا لا بد أن تأتي الساعة؟ لهذه العلة؛ وهي الجزاء، جزاء الصالحين على صلاح اعتقاداتهم وأعمالهم، وهذا واضح في الآية الرابعة:

(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

إنما ستقوم القيامة وتجمع الخلائق لكي يحصل الجزاء (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) يجزيهم على صلاح عقيدتهم وصلاح أعمالهم، يجزيهم أن عاشوا الحمد والثناء عليه في دنياهم، يجدونه في آخرتهم.

(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) سيعاملهم الله بهذه المعاملة التي ستتبين، في مقابل معاملة (الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ).

(وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ)

هناك قوم أيضًا سيجازيهم الله -عزّ وجلّ-. القيامة ستقوم لحكمة عظيمة وهي جزاء أهل الإيمان ونزول العذاب على هؤلاء الذين سعوا في آيات الله معاجزين. الناس فيهم صالحون متفاوتون في صلاحهم، وفاسدون متفاوتون في فسادهم، فالصالحون على تفاوت مراتبهم الله -عزّ وجلّ- سيعطيهم أجورهم، لكن في الأصل كل هؤلاء الصالحين لا يجاوزون أخطار يوم الدين إلا بعفو رب العالمين؛ لذلك من أكثر الأدعية المسنونة في العشر الأواخر التي نتحرى فيها ليلة القدر، أن نطلب من الله العفو لأننا ما حمدناه حق الحمد ولا قدرناه حق القدر.

العفو لتقصيرنا في أعمالنا، بالعفو ينجو جميع أهل الإيمان، ثم بالرحمة يدخلون الجنان، ثم بتفاضلهم في الأعمال يقتسمون المنازل.

هذا فريق (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ).

ويقابلهم (الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ).

معنى ذلك أن هؤلاء ما اكتفوا فقط بأن يكونوا من أهل الكفر، بل زادوا على ذلك أنهم منعوا غيرهم وطعنوا في الدين وشككوا الخلق، فلهذا يأتي يوم الدين ويكون لهم هذا الجزاء، فأهل الإيمان لهم مغفرة على التقصير، يعاملهم بالعفو فيغفر لهم، (وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) ليسوا فقط سالمين من العذاب الأليم، بل ومكرمين بهذا الرزق الكريم، وهذا من آثار عفو الله؛ مغفرة

الله للذنوب وشكره لقليل الأعمال، اجتمعت في هذه الآية (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) في مقابل الذين سعوا في آيات الله يطعنون فيها ظانين أنهم قادرون على غلبة هذه الآيات، وهذا باطل طبعا، فلا ينتظرهم إلا العذاب.

وانظر إلى أحوال أهل الإيمان، انظر إلى أحوال أهل العلم فتعرف أن الحمد إنما هو مبني على العلم، فإذا علم الإنسان، عرف أن الحق أن يحمد -عزّ وجلّ-:

(وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

(وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) يمكن أن يشار هنا إلى أن الذين أوتوا العلم إلى أقوام معينين مثل اليهود والنصارى، لكن المقصود على وجه العموم، المعنى العام أنه يرى الذين أوتوا العلم فتعلموا عن الله، وتعلموا عن كماله، يرون هؤلاء مع زيادة علمهم وزيادة تفكيرهم، وفكرهم في السماوات والأرض، وتفكرهم في الشرع، وتفكرهم في التدبير، مع زيادة العلم، يرون أن الذي أنزل إليهم من عند الله هو الحق. يتجردون من هواهم ويحسنون التفكير فيصلوا إلى هذا الأمر أنه هو الحق.

ويرون أيضًا أن هذا الشرع، هذا الدين الذي نزل به الرسول الأمين، هذا الدين الذي يتضمن الإيمان بالله والإيمان

بلقائه يهدي إلى صراط العزيز الحميد، يهدي إلى الصراط الذي تظهر فيه صفتي الله -عزّ وجلّ-(العزة والحمد) مرة أخرى، فتجد الإنسان سائرًا في هذا الصراط، متمسكًا بعزة الله، مؤمنًا بأن ربه حميد، فتجده لاهجًا بحمد الله، يفكر في شرع الله.

(وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) يرون أنه لا يوجد حق إلا ما أُنزل من عند رب العالمين، يرون أن الذي يريد أن تستقيم حياته في الدنيا فليأخذ هذا الإيمان ويأخذ هذه الأعمال التي أمرنا بها، فهي تهدي إلى الصراط المستقيم، لا شيء يصلح الخلق إلا هذا الشرع الذي نزل من عند رب العالمين، فهو يهدي إلى الصراط المستقيم، فيه الأمر بتزكية النفس، فيه الأمر بالصدق والإخلاص، فيه الأمر ببر الوالدين وصلة الأرحام، فيه الأمر بالإحسان إلى عموم الخلق، هذا الشرع ينهى عن كل صفة قبيحة تدنس النفس وتحبط الأجر؛ الشرك والزنا والربا والظلم في الدماء والأموال والأعراض، فهذه حال لا تخفى على من طلب العلم لأجل الله، أهم شيء أن يطلب العلم لأجل الله فيزداد من هذه المعاني الموجودة في هذه الآية.

الواجب علينا أن نسأل الله أن يزيدنا علمًا لنصل إلى هذه الرؤية القلبية فنتبصر في الشريعة تبصرًا يزيدنا يقينًا أنه هو الحق، ويزيدنا يقينًا أنه يهدي إلى صراط العزيز الحميد،

الصراط الذي مَن ساره؛ عزّ بعزّ الله وكان محمودًا في الدنيا والآخرة.

فالحمد لله الذي يسر العلم، نسأل الله أن يثبتنا ويجعلنا هداة مهتدين، اللهم آمين.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.